

تفسير سورة الحشر

وهي مدنية

وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير . عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : أنزلت في بنى النضير . رواه البخارى ومسلم ^(١) . وروى البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : قل : سورة النضير ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْغِلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقده ، ويصلى له ويوحده ، كقوله تعالى : ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْحُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : منيع الجناب ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ فى قدره وشرعه . وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والزهرى ، وغير واحد : كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم واعطاهم عهداً وذمة ، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنفضوا العهد الذى كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذى لا يرد ، وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يُصدّ ، فأجلاهم النبى ﷺ ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم ما لم يكن ببالهم ، وسيرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أضرعات من أعالي الشام ، وهى أرض الحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر . وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يهربون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم ؛ ولهذا قال : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله ، وكذب كتابه ، كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا ، مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الاليم .

روى أبو داود عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، أن

كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي، ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم أوتيتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم ونسي نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟».

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم شيء - وهى الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً، حتى نلتقى بمكان النصف فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم، قال لهم: «إنكم والله لا تأمنوا عندى إلا بعهد تعاهدوني عليه». فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا العَد على بنى قريظة بالكتائب، وترك بنى النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فاعاهدوه، فانصرف عنهم. وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم، حتى نزلوا على الجلاء. فجلت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة، أعطاه الله إياها وخصه بها، فقال: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يقول: بنى قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين، قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة، ولم يقسم من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التى فى أيدي بنى فاطمة^(١).

ولنذكر ملخص غزوة بنى النضير على وجه الاختصار، وبالله المستعان:

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازى والسير: أنه لما قُتل أصحابُ بئر معونة، من أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا سبعين، وأقلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد قتلت رجلين، لأدينهما». وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك الرجلين، وكانت منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقها.

قال ابن إسحاق فى كتابه السيرة: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير، يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري؛ للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما، فيما حدثنى يزيد بن رومان، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عَقْد وحلف. فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعيناك على ما أحبيت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تحيدوا الرجل على مثل حاله

هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلي . فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلًا المدينة . فاقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم . ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها . فنادوه : أن يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟

وقد كان رهط من بنى عوف بن الحزرج ، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول ، ووديعه ، ومالك بن أبي قوئل ، وسويد وداعس ، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتَمَتَّعُوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتهم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خَرَجْنَا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجعلهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وحلوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت لرسول الله خاصة بضعها حيث شاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار . إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة ذكرا فقرا ، فأعطاهما رسول الله ﷺ . قال : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عُمير بن كعب بن عمرو بن جحاش ، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاهما .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين : أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما هم به من شائي » . فجعل يامين بن عُمير لرجل جُملاً على أن يقتل عمرو ابن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . قال ابن إسحاق : ونزل في بنى النضير سورة الحشر بأسرها ^(١) .

فقوله : « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » . يعنى : بنى النضير « مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ » . عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض المحشر هاهنا - يعنى الشام فليقرأ هذه الآية : « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ » ، قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » . قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » ^(٢) . وقوله : « مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا » . أى : في مدة حصاركم لهم وقصرها ، وكانت ستة أيام ، مع شدة حصونهم ومنعتها ، ولهذا قال : « وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا » . أى : جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ، كما قال في الآية الأخرى : « قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ الْغُفْرَانُ فَاتَّخَذُوا الْأَوَّلِينَ بِالْأُولَى » . وقوله : « وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » . أى : الخوف والهلع والجزع ، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصروهم الذى نصر بالرعب مسيرة شهر ، صلوات الله وسلامه عليه . وقوله :

(٢) الدر المنثور (١٨٧/٦) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١٤٥/٣ ، ١٤٦) .

﴿ يُخْرِجُونَ يَدِيهِمْ بِإِذْنِ الْمَوْلَانِ ﴾ قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك ، وهو نقض ما استحسنوه من سفوفهم وأبوابهم ، وتحملها على الإبل ، وكذا قال عروة بن الزبير ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد . وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم ، فإذا ظهر على دَرَبٍ أو دار ، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان اليهود إذا علّوا مكاناً أو غلبوا على دَرَبٍ أو دار ، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودبروها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى : لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء ، وهو النفي من ديارهم وأموالهم ، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسي ، ونحو ذلك ، قاله الزهري ، عن عروة ، والسدي وابن زيد ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب في نار جهنم . قال عروة بن الزبير : ثم كانت وقعة بنى النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر . وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن لهم ما أثلّت الإبل من الأموال والامتنعة إلا الحلقة ، وهي السلاح ، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام . قال : والجلاء أنه كُتب عليهم في آي من التوراة ، وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليه رسول الله ﷺ ، وأنزل الله فيهم : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴾ . وقال عكرمة : الجلاء : القتل . وفي رواية عنه : الفناء . وقال قتادة : الجلاء : خروج الناس من البلد إلى البلد . وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام ، وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء ، فهذا الجلاء . وقوله : ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ ثَابِتٌ ﴾ أى : حتم لازم لا بد لهم منه .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى : إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴾ اللين : نوع من التمر ، وهو جيد . قال أبو عبيدة : وهو ما خالف المعجوة والبرني من التمر . وقال كثيرون من المفسرين : اللينة : ألوان التمر سوى المعجوة . قال ابن جرير : هو جميع النخل . ونقله عن مجاهد : وهو البويرة أيضاً ؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم ، وإرهاباً وإزعاجاً لقلوبهم . فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، وقاتدة ، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا : فبعث بنو النضير (١) يقولون لرسول الله ﷺ : إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، أى : ما قطعتم وما تركتم من الأشجار ، فالجميع بإذن الله ومشيتة وقدرته ورضاه ، وفيه نكابة العدو ، وخزي لهم ، وإرغام لأنوفهم . وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هي مغنم المسلمين . فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم ، وإنما قطعه وتركه بإذنه . وروى الإمام أحمد عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قطع نخل بنى النضير وحرّق . وأخرجه صاحبها الصحيح بنحوه (٢) ، ولفظ

(١) في المطبوعة : « بنو قريظة » وهو خطأ .

(٢) المسند (٥٤٣٢) والبخارى (٣٠٢١) ومسلم (١٧٤٦ / ٢٩) .

البخارى عن ابن عمر قال : حارب النضير وقريظة ، فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحق بالنبي ﷺ فأمّنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ، ويهود بنى حارثة ، وكل يهود بالمدينة . ولهما عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حرق نخل بنى النضير وقطع - وهى البؤيرة - فانزل الله ، عز وجل فيه : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِبْنٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُمُودِهَا فَإِذَا لِلَّهِ وَلِيخْرَى الْقَاسِقِينَ ﴾ (١) . قال ابن إسحاق : كانت وقعة بنى النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة . وحكى البخارى ، عن الزهري ، عن عروة أنه قال : كانت وقعة بنى النضير بعد بدر بستة أشهر (٢) .

﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى مينا ما الفى ؟ وما صفته ؟ وما حكمه ؟ فالقوى : كل مال اخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاب خيل ولا ركاب ، كأموال بنى النضير هذه ، فإنها بما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أى : لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصالاة ، بل نزل أولئك من الرعب الذى القى الله فى قلوبهم من هبة رسول الله ﷺ ، فأفاهه الله على رسوله ؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء ، فردّه على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها الله ، عز وجل ، فى هذه الآيات ، فقال : ﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ أى : من بنى النضير ﴿ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يعنى : الإبل ، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : هو قدير لا يغالب ولا يُمانع ، بل هو القاهر لكل شىء .

ثم قال : ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أى : جميع البلدان التى تفتح هكذا ، فتحكمها حكم أموال بنى النضير ، ولهذا قال : ﴿ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ ﴾ إلى آخرها والتى بعدها . فهذه مصارف أموال الفى ووجوهه .

روى الإمام أحمد : عن عمر ، قال : كانت أموال بنى النضير مما آفاه الله على رسوله مما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة ستة - وقال مرة : قوت ستة - ومابقى جعله فى الكراع والسلاح فى سبيل الله ، عز وجل . هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصراً ، وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم إلا ابن ماجه (٣) .

وقد رويناه مطولاً ، فروى أبو داود عن مالك بن أوس قال : أرسل إلى عمر بن الخطاب ، حين تعالى النهار ، فجئته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله ، فقال حين دخلت عليه : يا مال ، إنه قد دفأ أهل آيات من قومك ، وقد أمرت فيهم بشىء ، فاقسم فيهم . قلت : لو أمرت غيرى

(١) البخارى (٤٨٨٤) ومسلم (٢٩ / ١٧٤) .

(٢) البخارى (٣٢٩ / ٧) فتح .

(٣) المسند (١٧١) والبخارى (٤٨٨٥) ومسلم (٤٨ / ١٧٥٧) وأبو داود (٢٩٦٥) والترمذى (١٧١٩) .

بذلك ؟ فقال : خذ . فجاءه يرفأ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك فى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ؟ فقال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفأ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك فى العباس وعلى ؟ قال : نعم . فأذن لهما فدخلتا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا - يعنى : على - فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين ، اقض بينهما وأرحهما . قال مالك بن أوس : خيل إلى أنهما قدما أولئك النفر لذلك . فقال عمر : اتبدا . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة ؟ » قالوا : نعم . ثم أقبل على على والعباس فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة ؟ » فقالا : نعم . فقال : فإن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس ، فقال : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شئ قدير » . فكان الله أفاء على رسوله أموال بنى النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة - أو : نفقته ونفقة أهله سنة - ويجعل ما بقى أسوة المال . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم . ثم أقبل على على والعباس فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمان ذلك ؟ قالوا : نعم . فلما توفى رسول الله ﷺ قال أبو بكر : « أنا ولى رسول الله » ، فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر ، تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امراته من أبيها ، فقال أبو بكر : قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق . فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلت : أنا ولى رسول الله ﷺ وولى أبى بكر ، فوليتها ما شاء الله أن إليها ، فجئت أنت وهذا ، وانتما جميع وأمركما واحد ، فسالتانيتها ، فقلت : إن شئتما فانا أضعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذى كان رسول الله ﷺ يليها ، فأخذتماها منى على ذلك ، ثم جئتما لى لا قضى بينكما بغير ذلك . والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عجزتما عنها فرداها إلى . أخرجوه ^(١) .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن نبي الله ﷺ ، أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات ، أو كما شاء الله ، حتى فتحت عليه قريظة والنضير . قال : فجعل يرد بعد ذلك ، قال : وإن أهلى أمروني أن أتى النبی ﷺ فأسأله الذى كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن ، أو كما شاء الله ، قال : فسألت النبی ﷺ فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وجعلت تقول : كلا ، والله الذى لا إله إلا هو لا يعطيكن وقد أعطانيهن ، أو كما قالت ، فقال نبي الله : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا ، والله . قال : ويقول : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا والله . قال : « ويقول : لك كذا وكذا » . قال : حتى أعطاهما ، حببت أنه قال : عشرة أمثال أو قال : قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال . رواه البخارى ومسلم ^(٢) .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خمس الغنيمة . وقد قدمنا الكلام

(١) أبو داود (٢٩٦٣) والبخارى (٣٠٩٤) ومسلم (١٧٥٧ / ٤٩) والنسائى (٤١٤٨) والترمذى (١٦١٠) .

(٢) المسند (٢١٩ / ٣) والبخارى (٣١٢٨ ، ٤٠٣٠ ، ٤١٢٠) ومسلم (١٧٧١ / ٧٠) .

عليها في سورة « الانفال » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد .

وقوله : ﴿ كُنْ لَا يَكُونُ قَوْلُهُ بَيْنَ الْأَغْيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ أى : جعلنا هذه المصارف لمال الفداء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الاغنياء ويتصرفون فيها ، بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء .
وقوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر . وروى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : لعن الله الواشحات والمستوشحات ، والمتمصصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ، عز وجل . قال : فبلغ امرأة في البيت يقال لها : « أم يعقوب » ، فجاءت إليه فقالت : بلغنى أنك قلت كيت وكيت . قال : ما لى لا ألن من لعن رسول الله ﷺ ، وفى كتاب الله . فقالت : إني لاقرأ ما بين لوجه فما وجدته . فقال : إن كنت قرأته فقد وجدته . أما قرأت : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ؟ قالت : بلى . قال : فإن النبى ﷺ نهى عنه . قالت : إني لاظن أهلك يفعلونه . قال : اذهبي فانظري . فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت : ما رأيت شيئاً . قال : لو كانت كذلك لم تُجَامِعْنَا . أخرجنا فى الصحيحين^(١) . وقد ثبت فى الصحيحين أيضاً عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »^(٢) . وروى النسائى عن ابن عمر وابن عباس : أنهما شهدا على رسول الله ﷺ : أنه نهى عن الدُّبَاءِ والحِثَمِ والنَّقِيرِ والمَزَقِّ ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى : اتقوه فى امتثال أوامره وترك رواجه ؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه رجه ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْشَوْنَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفداء أنهم : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى : هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم ، وإيثارهم مع الحاجة ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . قال عمر : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ،

(١) السنن (٤١٢٩) والبخارى (٤٨٨٧) ومسلم (١٢٥ / ١٢٠) .

(٢) البخارى (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧ / ٤١٢) .

ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالانصار خيراً الذين تَبَوَّأُوا الدارَ والإيمانَ من قبل ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن سيئهم . رواه البخارى هاهنا أيضاً (١) .

وقوله : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : مِنْ كَرَمِهِمْ وشرف انفسهم ، يُحِبُّونَ المهاجرين ويواسونهم بأموالهم . روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير ، لقد كَفَّوْنَا الْمُؤْنَةَ ، واشركونا فى المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ! قال : « لا ، ما أثبتتم عليهم ودَعَوْتُمُ اللهَ لهم (٢) . وروى البخارى عن يحيى بن سعيد ، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى ﷺ الانصار أن يقطع لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تُقَطَعَ لإخواننا من المهاجرين مثلها . قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقونى ، فإنه سيصيبكم [بعدى] أثرة » . تفرد به البخارى من هذا الوجه (٣) .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قالت الانصار : اقم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : تكفوننا المؤنة وَتُشْرِكُكُمْ فى الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم (٤) .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ أى : ولا يجدون فى انفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم فى الذكر والرتبة . قال الحسن البصرى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعنى : الحسد . ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ قال قتادة : يعنى : فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد . وما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : كنا جُلُوساً مع رسول الله ﷺ ، فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلع رجل من الانصار تنظف لحيته من وضوئه ، قد تَعَلَّقَ نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الاولى . فلما كان فى اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الاولى . فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال : إني لاحتيت أبى فاقسمت الا ادخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت . قال : نعم . قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تَعَارَى وتقلب على فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أنى لم أسمعهُ يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحترق عمله ، قلت : يا عبد الله ، لم يكن بينى وبين أبى غَضَبٌ ولا هَجَرٌ ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلعت أنت الثلاث المار ، فأردت أن آوى إليك لانظر ما عملك فأتدنى به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعائى فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التى بلغت بك ، وهى التى لا تطاق . رواه النسائى وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين (٥) .

(١) البخارى (٤٨٨٨) .

(٢) المسند (٢٠٠/٣) ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٦١٧) .

(٣) البخارى (٣٧٩٤) وما بين المعقوفين منه .

(٤) المسند (١٦٦/٣) والنسائى فى الكبرى (١٠٦٩٩) .

(٥) البخارى (٢٣٢٥) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾، يعني: ﴿مِمَّا أُوتُوا﴾: المهاجرون . قال : وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم من الأنصار ، فعاتبهم الله في ذلك ، فقال: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، قال: وقال رسول الله: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم» . فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله ﷺ : «أو غير ذلك ؟» . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : «هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر» . فقالوا : نعم يا رسول الله (١) .

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يعني: حاجة ، أى : يقدمون المحلويج على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك . وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل» (٢) . وهذا المقام أعلى من حال الذين وَصَفَ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ١٨] . وقوله: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] . فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصديق بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : «ما أبقيت لأهلك ؟» . فقال : أبقيت لهم الله ورسوله (٣) . وهكذا الماء الذي عُرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم . وروى البخارى : عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال النبى ﷺ : «ألا رجل يُضَيِّفُ هذا الليلة ، رحمه الله ؟» . فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيفُ رسول الله ﷺ لا تدخره شيئا . فقالت : والله ما عندى إلا قوتُ الصبية . قال : فإذا أراد الصبيةُ العشاء فتوئيهن وتعالى فاطننى السراج ونطوى بطوننا الليلة . ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال : «لقد عجب الله ، عز وجل - أو : ضحك - من فلان وفلانة» . وأنزل الله عز وجل : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ . وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من طرق وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصارى بأبى طلحة ، رضى الله عنه (٤) .

وقوله: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى : من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح . روى أحمد عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال : «ياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح» ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا

(١) ابن جرير في التفسير (٢٨/٢٨) .

(٢) أحمد (٤١١/٣) وقال الألبانى في السلسلة الصحيحة (٥٦٦) : «إسناد جيد رجاله ثقات على شرط مسلم» .

(٣) أبو داود (١٦٧٨) ، وصححه الألبانى .

(٤) البخارى (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤ / ١٧٢) والترمذى (٣٣٠٤) والنسائى في الكبرى (١١٥٨٢) .

محاربهم . انفراد بإخراجه مسلم ^(١) . وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، ولياكم والشح ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » . رواه أحمد وأبو داود والنسائي ^(٢) . وعن أبي هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً » ^(٣) .

وقوله : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » : هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فراقهم من مال الفقه ، وهم المهاجرون ثم الأنصار ، ثم التابعون لهم بإحسان ، كما قال في آية براءة : « وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » [التوبة : ١٠٠] . فالتابعون لهم بإحسان هم : المتبعون لأثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم في السر والعلانية ، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ » أي : قائلين : « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا » أي : بغضاً وحسداً « لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة : أن الرافض الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفقه نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم : « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » . عن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ ، فسيتموهم . سمعت نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » . رواه البغوي ^(٤) .

ربع ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُظِيعَ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتُوا الْأَذْنَرَّ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿٢﴾ لَأَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ لَا يُقَدِّرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍ جُدِرَ بِأَسْهُرٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ كَتَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا أَيْمَانٍ وَهَمَّ عَذَابُ إِلِيمٍ ﴿٥﴾ كَتَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَكُمْ وَلَا نُظِيعَ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »

(١) المسند (٣ / ٢٢٣) ومسلم (٥٦ / ٢٥٧٨) .

(٢) المسند (٦٤٨٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٦٩٨) والنسائي في الكبرى (١١٨٣) .

(٣) النسائي (٣١٠٩) ، وصححه الألباني .

(٤) البغوي في معالم التنزيل (٨ / ٨٠) ورواه مسلم (١٥ / ٣٠٢٢) بنحوه .

أَخْرَجْتُمْ لِنَخْرُجَنَ مِنْكُمْ وَلَا نَطِيعُ لَكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴿١٨﴾ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَنْهَدُ عَنْهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم ألا يقوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذى قالوه ، ولهذا قال : ﴿ وَلَنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يقاتلون معهم ، ﴿ وَلَنْ يَنْصُرُوهُمْ ﴾ أى : قاتلوا معهم ﴿ لَيُؤْكِنَ الْأَعْيُنُ أَنْ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها . ثم قال تعالى : ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْمَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله ، كقوله : ﴿ إِذَا فُرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧] ، ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُعْتَصِنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جَبُرٍ ﴾ يعنى : أنهم من جُبنهم وعلفهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة ، بل إما فى حصون أو من وراء جدر محاصرين ، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال : ﴿ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أى : عداوتهم بينهم شديدة ، كما قال : ﴿ وَيَلْبِيقُ بَعْضُهُمْ أَسْ بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥] ، ولهذا قال : ﴿ نَحْشِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أى : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف . قال إبراهيم النخعي : يعنى : أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ كَتَمَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَفَقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال مجاهد ، والسدى ، ومقاتل بن حيان : يعنى : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر . وقال ابن عباس : ﴿ كَتَمَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : يهود بنى قينقاع . وكذا قال قتادة ، وابن إسحاق . وهذا القول أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلهم قبل هذا .

وقوله : ﴿ كَتَمَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ يعنى : مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ ثم لما حقت الحقائق وجدَّ بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم فى هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان - والعياذ بالله - الكفر ، فإذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتصل ، وقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : فكانت عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ، مصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ، ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : جزاء كل ظالم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمْتُمْ لِصَدِّقَاتِ اللَّهِ إِنْ اللَّهَ حَبِيرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْغَايِرُونَ ﴾

روى الإمام أحمد ، عن جرير ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حفاة عراة مجتأى النمار - أو : العباء - متقلدى السيوف عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، قال : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالا فاذن وأقام الصلاة ، فصلى ثم خطب ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى آخر الآية [النساء: ١] . وقرأ الآية التى فى الحشر : ﴿ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ، تصدق رجل من ديناره ، من درهما ، من ثوبه ، من صاع برء ، من صاع ثمره - حتى قال - ولو يشق ثمره . قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتהלل وجهه كأنه منقبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ

سَنَ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرٌ مِنْ عَمَلٍ بِهَا بَعْدَهُ ، - مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْزِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرٌ مِنْ عَمَلٍ بِهَا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ . ١ . انفرد بإخراجه مسلم ^(١) .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أمر بتقواه ، وهو يشمل فعل ما به أمر ، وترك ما عنه رَجَر . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَنْتَظِرُ نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أى : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : تأكيد ثان ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم ، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أى : لا تسوا ذكر الله فينبغيكم العمل الصالح الذى ينفعكم فى معادكم ، فإن الجزء من جنس العمل ، ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة ، الحاسرون يوم معادهم ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] . وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى عن نعيم بن نَمِحة قال : كان فى خطبة أبى بكر الصديق : أما تعلمون أنكم تغفون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله ، عز وجل ، فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ، عز وجل . إن قوما جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدن وحصروها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تقضى عجائبه فاستضيؤوا منه ليوم ظلمة ، واستضيؤوا بسنانه وبيانه ، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [التوبة : ٩٠] ، لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا يتفق فى سبيل الله ، ولا خير فىمن يقلب جهله حلمه ، ولا خير فىمن يخاف فى الله لومة لائم ^(٢) . هذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يَسْعَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ أى : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله يوم القيامة ، كما قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مَوَازٍ مُّتَحَابِّينَ وَمِمَّا تَحْتُمُّ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجن : ٢١] ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْعَىٰ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا النُّسَىٰ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر : ٥٨] . وقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] ؟ فى آيات آخر دالات على أن الله تعالى ، يكرم الأبرار ، ويهين الفجار ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أى : الناجون المسلمون من عذاب الله ، عز وجل .

﴿ لَوْ أَرْنَاهَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ فَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٦٠) .

(١) المسند (٤ / ٣٥٨) ومسلم (١٠١٧ / ٦٩) .

الرَّحِيمُ ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ، ومبيناً علو قدره ، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب ، وتتصدع
عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾
أى : فإذا كان الجبل فى غلظته وقساوته ، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ، لخشع وتصدع من خوف الله ،
عز وجل ، فكيف يلين بكم أيها البشر الا تلين قلوبكم وتخشع ، وتتصدع من خشية الله ، وقد
فهمتم عن الله امره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . قال
ابن عباس فى قوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ ﴾ إلى آخرها ، يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على
جبل حَمَلْتَهُ إِيَّاه ، لتصدع وخشع من ثقله ، ومن خشية الله . فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن
يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم قال : كذلك يضرب الله الامثال للناس لعلهم يتفكرون .
وكذا قال قتادة ، وابن جرير . وقد ثبت فى الحديث المتواتر : أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ،
وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء
النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حَنَ الجذع ^(١) وجعل يثن كما يثن الصبي
الذى يُسَكِّنُ ، لما كان يُسَمِعُ من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن
البصرى بعد إيرادِهِ : «فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع » . وهكذا هذه الآية
الكريمة ، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته ، لخشعت وتصدعت من خشيته ، فكيف
بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَن قُرْآنًا سُبِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ السَّمَوَاتُ ﴾
الآية [الرعد : ٣١] . وقد تقدم أن معنى ذلك : أى لكان هذا القرآن . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ الْعِجَارَةِ لَمَا
يَتَفَكَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٧٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : أخبر تعالى أنه
الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم
الغيب والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شيء فى
الارض ، ولا فى السماء من جليل وحقيق وصغير وكبير ، حتى الذر فى الظلمات . وقوله : ﴿ هُوَ
الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته هاهنا . والمراد أنه ذو
الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال تعالى :
﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الاعراف : ١٥٦] ، وقال : ﴿ كَتَبَ رَحْمَتُكَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الانعام : ٥٤] ،
وقال : ﴿ قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴾ أى : المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا مانعة ولا مدافعة ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ قال وهب بن
منبه : أى الطاهر . وقال مجاهد ، وقتادة : أى المبارك . وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام ﴿ السَّلَامُ ﴾
أى : من جميع العيوب والنقائص ؛ لكماله فى ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ قال ابن عباس : آمن

خلقه من أن يظلمهم .. وقال قتادة : أمن بقوله : إنه حق . وقال ابن زيد : صدق عبادة المؤمنين في إيمانهم به ﴿ الْمُهِمِّن ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : أى : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى : هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج: ٩] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦] ، وقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَاتِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الآية [الرعد: ٣٣] .

وقوله : ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد عز كل شيء فقهره ، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه ؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ؛ ولهذا قال : ﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ أى : الذى لا تليق الجبرية إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما فى الصحيح : « العظمة إزارى ، والكبرياء رداى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبت » (١) . وقال قتادة : الجبار : الذى جبر خلقه على ما يشاء . وقال ابن جرير : الجبار : المصلح أمور خلقه ، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم . وقال قتادة : المتكبر : يعنى عن كل سوء . ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْغَالِيُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ الخلق : التقدير ، والبراء : هو الفرى ، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ، عز وجل . ومنه يقال : قدر الجلال ثم قرئ ، أى : قطع على ما قدره بحسب ما يريد . وقوله تعالى : ﴿ الْغَالِيُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون على الصفة التى يريد ، والصورة التى يختار . كقوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانطار: ٨] ولهذا قال : ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى ينفذ ما يريد لإيجاده على الصفة التى يريد .

وقوله : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الأعراف » ، وذكر الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » ، وهو وتر يحب الوتر . وتقدم سياق الترمذى وابن ماجة له ، عن أبى هريرة أيضاً ، وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » - واللفظ للترمذى - : « هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » . وسياق ابن ماجة بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وقد قدمنا ذلك مبسوطاً مطولاً بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هنا (٢) .

(٢) مضى تخريجه عند الآية (١٨٠) من سورة الأعراف .

(١) مسلم (١٣٦/٢٦٢٠) .

وقوله : ﴿ تَسْبَحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ تَسْبَحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فلا يرام جنابه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى شرعه وقدره .